شعر البارودي

حياته وصورة عصره[1]

لمعالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا

شعر البارودي حياته ، فكل قصيدة في ديوانه صورة لحالة نفسية من حالات هذا الشاعر الملهم . والديوان في مجموعه صورة لعصر الذي عاش فيه ، ولبيئة التي أحاطت به ، وللنهضة الثورية في الحياة حوله ، وللثورة التي تمخضت عنها تلك النهضة ، وللنكسة التي أصابت النهضة والثورة كليهما ، والتي نقلت الشاعر من وطنه إلى منفاه ليقيم به بضعة عشر عاماً وبعض عام ، يستأثر الشعر بها جميعاً . وقد اختار البارودي أثناء نفيه أجود ما قيل من الشعر في العصر العباسي ، وقلد أجود مما اختار ، فبعث الشعر العربي خلقاً جديداً . وشعر ملئ كشعر الشباب وشعر الكهولة صورة صادقة لهذه الحياة التي أرادها القدر أن تكون فذاً من الأفذاذ ، تسمو بها النشوة إلى ذروة السرور والطرب حيناً ، ويدفعها الطموح إلى مضطرب الثورة والمثل الأعلى حيناً آخر ، ثم تصقلها السن ويصقلها النفي ، فإذا الحكمة والحنين والحب تبعث إلى هذا النفس سكينة تسمو به على ما تأنوف من ألحان الحياة ، لا يعبر من ذلك ما يدفعه النفي إلى نفس الشاعر من ألم تترجم عنه صيحات ثائرة تعيد أمام أذهاننا صورة من ثورات شبابه وثورة كهولته

أما وديوان البارودي حياته ، فلا بد في تقديمه من وصف هذه الحياة ، ومن تصوير البيئة التي عاش فيها . وليس يتسع التقديم للإفاضة في الوصف والتصوير فلنتناول من جوانب هذه الحياة ، ومن نواحي هذه البيئة ما يجلي أمامنا الحالات النفسية التي أملت على الشاعر شعره . وسنرى من هذا الوصف كثيراً مما يوضح أغراض الشاعر ، فيعيننا على إدراكها كاملة ، ويجلو لنا الفضل العظيم الذي أتاه البارودي . فبعث به الشعر العربي واللغة العربية . ومهد لنا من ألوان المتاع بهما والانتفاع بتراثهما ما يرفع ذكره في الخالدين

— ١ —

ولد محمود سامي البارودي بمصر لأبوين من الجراكسة في السابع والعشرين من

[1] هذا البحث القيم في حياة البارودي وعصره وشعره هو مقدمة الكتاب الذي أخرجته لجنة البارودي

شهر رجب سنة ١٢٥٥ هجرية (١٨٣٨ ميلادية) . وكان أبوه حسن حسني بك البارودي من أمراء المدفعية ، ثم صار مديراً لبربر ودنقلة في عهد التغور له محمد علي باشا والي مصر . وكان عبد الله بك الجركسي جده لأبيه . أما لقبه « البارودي » فنسبة الى بلدة إبتاي البارود إحدى بلاد مديرية البحيرة . ذلك ان أحد أجداده الأمير مراداً البارودي بن يوسف شاويش كان ملتزماً لها ، وكان كل ملتزم ينسب في ذلك العهد الى التزامه . وكان أجداد البارودي يرقون بنسبهم إلى حكام مصر المماليك . وكان الشاعر شديد الاعتداد بهذا النسب في شعره وفي كل أعماله ، فكان له فيه أثر قوي في جميع أدوار حياته ، وفي المصير الذي انتهى إليه

وقد حرم البارودي العطف الأبوي منذ نعومة أظفاره . مات أبوه بدنقلة وهو في السابعة من عمره ، فكفله بعض أهله وضموه اليهم . وقد تلقى في بيتهم دراسته الاولى من الثامنة الى الثانية عشرة من عمره ، ثم التحق بالمدرسة الحربية مع امثاله من الجراكسة والترك وابناء الطبقة الحاكمة . فقد كانت الجندية مظهر السيادة والعزة ، ومن ثم كان لزاماً على أبناء هذه الطبقة أن يتعلموا فنونها ليتهيأوا للمناصب الرئيسية للدولة . هذا الى أن مصر كانت يومئذ في أوج النشاط الذي بثه فيها محمد علي ، والذي كان الجيش أسه وقوامه

وخرج البارودي من المدرسة الحربية في أخريات سنة ١٢٧١ هجرية (١٨٥٤ ميلادية) ، وهو في السادسة عشرة من عمره . ولسوء حظه وحسن حظ الأدب كانت ولاية مصر قد آلت حينئذ الى عباس الأول ثم الى سعيد . وكان عباس قد عدل عن الخطة التي بدأها محمد علي حين رأى الدولة العثمانية تنظر الى جيش مصر بعين الريبة والقلق . لذا تعطلت النهضة التي كانت متصلة بالجيش في الصناعة والتعليم ، وبدأ يحتشم على مصر جو من الركود وبث دأبت الروح المصرية في توثبها بعد الذي رأته من توثبها على غزو الشعوب وغزو الممالك العثمانية نفسها

وأصبح عهد سعيد وخرج (الباشجاويش) محمود سامي البارودي من المدرسة الحربية في هذا الجو الراكد تستجن في جنباته أسباب اليقظة والقلق . ماذا نراه يصنع ؟ لقد سرح الجيش وأخرت بيادق الفتاك من أنوية مصر ، وتسمر هو وامثاله من رجال السيف على عيش الحلوى والدعة . وكان أكثر هؤلاء رجالاً صغار الأحلام لم يشئ لهم اضطهادهم الى سكينهم وسكنوا الى حوانيتهم . ولعل كثيراً منهم قد سرهم البعد عن مواطن القتال وخطره ، وطاب لهم عيش الدعة والتاجر بفارغ القلب وهدوء البيئة والتفاق . أما هذا الشاب الذي لم يتجاوز بعد عنفوان الصبا والذي يجري في عروقه دم الامارة والمجد ، فقد أحس ثورة الشباب تهز منه عنفوانه . تطلع الى ماضي الغرب وذكر مسيرة الأعلام المصرية الى بلاد العرب والى سورية وفي الأناضول ، فتمنى لو أنه فيهم بين هؤلاء الغزاة وشاركهم مغارمهم ومغانمهم وفي

ما قبل هذا الماضي ، فرتسمت أمامه صورة أمجاده الماثلة يحكون على ضفاف ابو دي ، فلفّ الى عهدهم ، وتمنى لو كان معهم ، وانى حتم مسعد ما اتّصل بمستقبل برجوز الانسان فيه مجداً وسلطاناً . لكنهم أم لاذع حين يطلب اليه الماضي أن نحققها فذا المستقبل أمامه مظلم عبوس

كيف يتسلى الشاب عن هذا الألم ؟ ألا سبيل إلى ميادين يخلقها وحروب يخوض غمارها مع الخالقين ؟ ان العرب أجدادنا الاولين — والعربي جدٌّ لكل من تكلم العربية — قد سجّلوا في شعرهم وقائع الحرب ، وصوروا ميادينها ، وبلغوا من قوة تصويرهم أن اجروا فيها حياة لا تقل ، حياة لا تعرف الركود ولا الضعف ولا الاستكانة . فليرجع الشاب الى ديوان الحماسة وليقرأ الشعراء الذين يصورون الزمن امام بصائرنا ، ويجعلونها ، على بعد ما بيننا وبينهم ، تسمع قعقعة السلاح ، وترى نزال الأبطال ، ونشترك معهم في المعركة بقلوبنا وأرواحنا ، وإن لم نشترك فيها بدروعنا وسيوفنا

اندفع الشاب يقرأ الشعر العربي القديم ، فتختزن ذاكرته القوية منه كل ما طاب لها ادّكاره . وألفى البارودي في هذا الشعر روعةً وجمالاً يأخذان باللب ، ويحركان اللسان الى القول . وهذا الشعر لا يقف عند الحروب والميادين وما تخلعهُ على الأبطال من مجد ، بل يتناول الحياة كلها : جدها وهزلها ، حلوها ومرّها . ففيه الغزل والوصف والحكمة ، وكل ما يطمع الانسان ان يجده فيه . وأنت كلما ازددت إمعاناً في قراءته وتدقيقاً في معانيه ، اتسعت لك آفاقه ، فازددت به متاعاً وبحفظه تعلقاً

وتحركت نفس الشاب لقول الشعر بعد ان توفر على مطالعته واستظهاره . لكن ! أي شعر يقول ؟ والى أي الأغراض ينزع ؟ أيمدح ؟ ولكن من ؟ ولماذا ؟ أفيدعو ؟ ولكن من ؟ والى أي شيء ؟ ومن بين الأغراض أنبل مما يجول بنفسه من آمال وآلام ! أليس هو البارودي سليل الماليك ، الطموح الى المجد والى الفخر بماض مؤثل ! والدم الذي يجري في عروقه ، وإن فقد أباه طفلاً وعاش يتيماً ، يسمو به على أمثاله من أرباب السيف جميعاً ، بل يسمو به على كل من في المملكة ، ويجعله وحده الجدير بأن يكون غرض شعره

هذه النزعة في شعر البارودي بدت منذ شبابه ، ومنذ بدأ قريضه يستقر لتحفظه الأجيال . والقصيدة التي رثى بها أباه وهو في العشرين من سنه تصرح بهذا المعنى واضحاً جليًّا . فهو يقول فيها إنهُ فرد من أمجاده لا نظير له فيهم . وهو يكرر هذا المعنى في كل شعره طول حياته . وإيمانه بقيمته هو الذي سما به الى الذروة من مناصب الدولة . كما أنهُ هو الذي انتهى به إلى النفي وشعره إلى الخلود

ولقد رضي البارودي عن شعره منذ قال ، إذ رآه صورة نفسه وما تعبر اليه في

لذلك لم ينصرف عنهُ حين عيره أبناء طائفته أنهُ يحاكي النظّامين الذين يلتمسون عطف حاكم أو عطاء أمير. وكيف يسمع هم أم كيف يتبعهم وهو يقول الشعر حبًّا بأغراضه عن ان تصاغ إلاَّ في أجمل اللفظ وأروع العبارة! ولقد سبقهُ من الأمراء في الدول العربية شعراء مجيدون خلّد الدهر شعرهم وأثبت التاريخ في أمجد صحفه أسماءهم. كان ابن المعتز شاعراً، وكان الشريف الرضي شاعراً، وكان أبو فراس شاعراً، وكان امرؤ القيس قبل هؤلاء جميعاً شاعراً. ولقد قرأ البارودي شعرهم جميعاً فطرب له واهتز لروعته. أفلم يقرأ من يعيرونهُ مثل ما قرأ؟ وما ذنبه اذا قعد بهم جهلهم عن اتباع بجمال الشعر وقعدت بهم قرائحهم عن صوغ مثله! وهو في هذا المعنى يقول:

تكلّمتُ كالماضين قبلي عادة ... بها عادة الانسان ان يتكلّما
فلا يعتدي بالاساءة عاقلٌ ... فلا بد للابن الأبيّ أن يقرعا

كانت دولة الشعر ناشئة إذ ذاك. فكان عبد الله فكري ومحمود صفوت الساعاتي وعبد الله نديم وغيرهم يقولون في اغراض شتّى. فكر البارودي الناشيء كان من طراز غير طراز هؤلاء جميعاً كان غيرهم بنسبه، وبتفكيره، وبمثله الأعلى في الحياة، ثم كان غيرهم بموهبته في الشعر. فهو لم يتعلم النحو والصرف والعروض والقوافي، وهو لم يظن الشعر يبتغي بقوله مأرباً. إنما سجع به لانهُ في سليقته، ولا بد للابن الأبيّ ان يترنم، وسجع على عادة الأمراء الشعراء من قبله ليخلق من حوله ميادين لمجدٍ يعوضهُ عما فات سيفه في ميادين القتال، بعد ان وردت الأقدار سيف مصر الى غمده.

على انهُ رأى الجو المحيط به لا يتسع لتحليقه ولا لطموحه. ولعله رأى كذلك ان هذا الشعر العربي الذي اصبحت أقدامه بروحه قد يضيق على سعته ما تصبو اليه روحه. لذلك سافر الى الآستانة عاصمة الدولة، والتحق بوزارة الخارجية، وتعلم اللغتين التركية والفارسية، وعكف على آدابهما. فاستظهر شعرهم وتعمق أوزانه، ودعتهُ سابحة الشاعر الى النظم فجاء بالتركية وبالفارسية، كما قال من قبل بالعربية.

ثم ان الطبيعة العربية كانت أصيلة في نفسه، فرجع الى اللغتين التي نظم بهما على ضفاف البسفور يقرأ دواوين الشعراء الأولين ومعاصريهم ويدرسهم. واستظهر منها ما يعصب له استظهاره. فلما كانت سنة ١٢٧٩ هجرية (١٨٦٣ ميلادية) سافر الخديو اسماعيل مصطحباً معه ابن عمه الأمير يوسف كمال مصر يرفع بين يديه الأمر بالآستانة آي الشكر على ولايته. فحمل البارودي بالخاصية التي صحبته اليها مدحة الى الخليفة، فوسم اسمه بها وقلده النجادة والسيف. وعاد الى مصر في شهر رمضان من تلك السنة

— ٢ —

عاد البارودي الى مصر في الرابعة والعشرين من سنه يبدأ صفحة جديدة من حياته فقد عقد اسماعيل العزم على ان يعيد مصر سيرتها في عهد جده. فيجب ان يكون لها جيش قوي وأعلام خفاقة ، ويجب ان تعود الى نهضتها في العلم والصناعة ، بل يجب ان تتطلع اليها أنظار العالم كله اعجاباً بها وتقرباً اليها . ويجب لذلك ان تنقل كل مافي أوربا من اسباب الحضارة ، وأن تسير في ذلك بخطى جبارة تجعل هذا الشاهد المصلح يرى بعينيه ثمرة سياسته وجهوده

ورقي البارودي في رتبته العسكرية اول ما نزل مصر وعين على قيادة فرقتين من الفرسان Les Gardes فتح رقيه آفاقاً من الحياة أمامه جعل عابسها يبسم له . وزاد في ابتسامها أنه لم يلبث في منصبه الجديد الا قليلاً ، ثم اوفد الى فرنسا مع جماعة من ضباط العسكرية المصرية حيث شهد اشاورات الجيش الفرنسي السنوية ، ومن هناك سافروا الى لندن ، فشهدوا من الأعمال العسكرية ما زادهم بها علماً

وعادوا جميعاً الى مصر ، فاذا الحظ يلقي البارودي مفتوح الذراعين ليضمه اليه ، فيرقى به في سنة الى رتبة « القائمقام » في فرسان الحرس Les Gardes ، ثم الى رتبة « امير الاي » ليتسلم قيادة الفيلق الرابع من عسكر الحرس الخاص . أي شيء هذا الا أنه الجد الذي طمح اليه صبيٌّ ، فصار تيسير له أسبابه عجز مصر الى الاستانة أما وقد بدأ الدهر يعرف له مكانه ويهيء له اسباب العظمة طائعاً مختاراً ، بل مغتبطاً مسروراً ؛ فقد بدأت الامور تطمئن والعدل يعود الى مصر

أما آن لهذا الشاب ان يستقر ؟ كلا ! فقد شبت الثورة في جزيرة اقريطش (كريت) على الدولة العثمانية بعد أربعة اشهر من تسلمه تلك القيادة . وكانت سياسة اسماعيل ترمي الى مجاملة الخليفة ومساعدته ليبلغ الغاية من اغراضه . لذلك أرسل جنداً يعاون قوات جلالته على قمع تلك الثورة ، ثم كان البارودي « رئيس ياور حرب » في هذا الجند . ما كان أسعده يوم عيّن ، وما كان أشده سعادة يوم سافر ! لقد شعر بسيفه يهتز في قرابه ، وبيده تمسك مقبض هذا السيف لتضرب به الثائرين ، ورأى مجد الجندي يتجلى امامه وهو واقف على سفينة يلقي تحتها الموج المصطخب اثر ثورته الهادئة المطمئنة . فلما رست به السفينة على شاطىء الجزيرة الثائرة خف يتقدم رفاقه مسرحاً بصره في الأودية والوهاد حوله ، مشوقاً أي شوق للقاء الذين خرجوا على الولاء للدولة وتمكبوا عن طاعة السلطان . وأحسن البارودي البلاء في الحرب ، فأنعم عليه السلطان بالوسام العثماني من الدرجة الرابعة . فلعل إنعام البارودي عينا وعلى نفسه كان أعظم من كل وسام في هذه الحروب قال في قوافيه التي مطلعها :

أخذ الكرى بمعاقد الأجفان حتى اسرى بأغنة الوسنان

كما قال في أبياته التي أشهرها بقوله :

ولما تداعى القوم واشتبك القنا ودارت كما تهوى على نطبها الحرب

من يومئذٍ بدأت الأنظار تتطلع الى البارودي الشاعر تطلع إعجاب وإكبار . لقد ترنم هذا الشاب بأنغام في الشعر لم يألفها أهل زمانه . فهم انما ألفوا عبارة ومرونة . كان محمود صفوت الساعاتي ، أسلم معاصريه ديباجة وأقومهم عبارة ، لا يقول إلا ليمدح أمراء الحجاز أحياناً ، وولاة مصر وسادتها أحياناً أخرى ، يبتغي عطاءهم ويرجو إحسانهم . وكان ما يعرض في شعر هؤلاء المعاصرين من حكمة او فخر قولاً معاداً ، سبقهم اليه غيرهم في ديباجة أمتن ولفظ أكرم . وكانوا جميعاً متأثرين بشعر المتأخرين ، فكانت المحسنات البديعية عندهم كل شيء وكانت معانيهم في جملتها مطروقة متداولة . اما هذه القفزة التي قفزها البارودي فسما بها الى مكان الفحول من الشعراء الأولين في الجاهلية والعصور الأولى من الاسلام ، فقد أثارت عجب الناس واستثارت إعجابهم . وحق للناس ان يعجبوا . فهذا الشاب الشاعر الملهم هو الرسول الذي بعثته العناية لينفخ في الشعر العربي روحاً تنشره من الجمود الذي انطوى عليه القرون الطوال وليمهد السبيل من بعده لأبناء مذهبه : شوقي ، وحافظ ، واسماعيل صبري ، ومن نسج نسجهم وسار سيرتهم

ما الجديد الذي استرعى الأسماع في شعر البارودي ؟ أهو الأسلوب الجزل والديباجة البدوية اللذان تجليا في كثير منه ؟ لكن اسلوب الساعاتي وديباجته كانا لا يختلفان من جزالة وبداوة ، وقد نزع جميع الشعراء إبان هذه النهضة الأولى ذلك النزع ، فان قاسم البارودي وسما عليهم قلا جديد في نزعته . إنما الجديد الذي استرعى الأسماع لشعره ودعا الى الاعجاب به ، هو نزوعه الى تصوير الواقع كما هو في بساطة وسلاسة وقوة ، دون اعتماد على محسنات اللفظ البديعية من جناس وطباق ونحوهما ، ودون اغراب في الخيال ، ان آثار العجب لم يثر الاعجاب

وفي شعر البارودي ظاهرة لعله لم يفطن لها اول الامر أحد . فهو قد اعتمد في تصويره الواقع على حاسة النظر اكثر من اعتماده على سواها . وأنت اذ تقرأ قصيدتيه اللتين اثبتنا مطلعيهما عن حرب اقريطش ترى تصوير المرئيات واضحاً فيهما كل الوضوح ، وترى هذا التصوير سهلاً لا تعمُّل فيه . فهو في القصيدة الأولى يصور الليل الصارب بجرانه فوق الرقى والتلاع ، لا تستبين العين في ظلماته غير الضوء المنبعث من أسنة الحراب . وغير اللماع سيوف الثائرين المختفين في جنح الظلام ، ودون الصبح يصبح وأبيت هذه الخيل قد نبتت أسنة واعة كثيرة العدد الجاثم فوقها ، ورأيت الماء أحمر قانياً كثيرة ما يختلط من دم الفتى به

ونستطيع أن نرجع الى القصيدة الثانية في هذا الجزء من الديوان لنرى صورة الحرب دائرة الرحى ، والمنية آخذة من الكرّ والفرّ مأخذها ، والأرض داثرة بالأبطال كأنهم

سكارى من وقع الهوى ، والشاعر يرى هذا كله ثم يقول :

صبرت لها حتى تجلت سماؤها وإني صبورٌ إن ألمَّ بي الخطبُ

وتصوير الشعور صفة بارزة في شعر البارودي كله . وذلك شأنه بخاصة فيما يزعم فيه أنه تقليد المتقدمين . بل لقد كان هذا التصوير الوجداني للمنظورات غايته وهو يقلد . ولأبيته المشهورة التي قالها في صباه معارضاً قصيدة الشريف الرضي « لغير أصلا مني الفلا والتجنب » ، والتي مطلعها :

سوى بنجدٍ الأعاريد يطرب وغيري بالقذاف يلهو ويعجب

فيها من هذا التصوير شيء غير قليل . وأنت ترى التصوير واضحاً في غير تقليد في بائيته التي مطلعها :

بين أيام الصبا وشبابي أنراها تعود بعد الذهاب

وهو يصف في هذه القصيدة مشهداً لمصر تراه أعيننا كما رآه هو ، ويصفه وصفاً قوياً يجعله حياً ناطقاً بكل النشاط والحركة . ولقد قال هذه القصيدة وهو منفي في سرنديب يأسف فيها لذهاب الشباب ويحن الى وطنه ، فاذا الوطن صورة منظورة أمامه يرسمها رسم مصور بارع

ولقد هيأت البيئة التي عاش فيها البارودي هذا الجانب التصويري من شاعريته . فهو منذ عاد من أثر يطش بدفع ثورتها ، قد أقام ثنتي عشرة سنة كاملة بعيداً عن ميادين القتال عين أتاه ها يادراً (بمية) الخديو اسماعيل ، ثم رئيس اليادورية ، ثم اصطفاه الخديو كاتم سره الخاص ثم سافر في رحلتين قصيرتين الى الآستانة في مهمة سياسية تتصل بفتنة الهرسك ، ثم فتنة البلقان واخذ الأسود في هذه السنوات الاثنتي عشرة كانت مصر ميدان حياة ونشاط قلَّ نظيرها في أمة من الأمم : نهض بها اسماعيل بعد الكبة التي أصابتها في عهد سلفيه سعيد وعباس الأول نهضة هي أدنى إلى الثورة منها الى النشاط . أراد لها ان تقف مع الأمم الاوربية في صف الحضارة وان تكافئها في الوجود الدولي وهذه الأمم قد بلغت مكانتها في أجيال متعاقبة بذلت اثناءها جهوداً جبارة لتبلغ ما بلغته . فليضاعف ابو الأشبال الجهود ، وليجعل الزمن رهن أمره ، وليدفع مصر متضافرة معه ، قوية بقوته ، ليصل في سنوات إلى ما وصلت اليه اوربا في تلك الأجيال . وماذا ينقصه ، وينقص مصر لتحقيق هذه المعجزة ؟ العزم ؟ الذكاء ؟ الهمة ؟ البأس ؟ هذا كله موفورٌ فيه وفي مصر . وكل ما عليه ان يتجنب ما وقع فيه جده الأكبر فلا يناصب الدولة العثمانية العداوة فيحرج من تأليب اوربا عليه فأما الباقي فالحصول عليه يسير . فمصر غنية ، وقناة السويس التي تشق خلالها ستزيدها ثروة وتجعلها مركز الحياة في العالم . ذلك ما يؤكده ديليسبس ، وذلك ما لا سبيل الى الريب فيه . فلتفرض مصر الدين لتحقيق نهضتها المعجزة التي تبهر العالم ، ومصر الناهضة الفتية القوية قديرة على اداء ديونها وعلى مضاعفة ثروتها

وأين هو مرَّ يخاطر اسماعيل ان تضارع عاصمته عاصمة فرنسا ، وان تكون القاهرة باريس الشرق ، وما تمت بعد سنوات حتى قامت العصور شاهدة على شاسع الميل بين الجزيرة

والروضة : روضة المقياس . لكن اسماعيل كان أبعد نظراً وأعمق ذكاء من ان يكتفي بهذه المظاهر فلفتح المدارس ، ومد السكك الحديدية ، وليم الشاطئ المصري أنحاء الدولة جميعاً ، وتطاوع حكومة مصر شركة قناة السويس في الجد والمثابرة ، وليكن افتتاح القناة بين البحرين الأبيض والأحمر مشهداً فذاً في تاريخ العالم كله ، تقع فيه أعين الملوك والساسة على مصر المتحضرة الناهضة بعبء الحضارة كنهوض فرنسة وانكلترا بمثلها ، وعلى اسماعيل مليك مصر ذي الأيد قائماً في ثلمة من السلطان تدوي أمامها أبهة اصحاب العروش في الدول الأوربية كلها

وقد رأيت البارودي في معية اسماعيل ورأيت امين سره . والبارودي شاعر قوي الحس طموح الى العلا ، فلم يكد يحظ بقربه من صاحب العرش ، وجعل الحياة وسرها وقفتها في ملكه وضوع يده . ماذا يصنع ؟ أقدم يحلوان ، وأرخى لشبابه ولهوى الشان العنان . فعرف الشراب ، مجالسه ، والغواني وفتنهن ، والطرب بالموسيقى وبالغناء . وقلما في هذه الأغراض جميعاً ، فما تكاد قصيدة من قصائده تخلو منها . لكنك في حل من ان تسأل أأمعن في الحب وخضع لسلطانه ؟ او بلغ من إدمان الشراب وحياة اللهو ما بلغ الماجنون ؟ أم كان شعره في الغزل وفي الخمر شعر محاكاة اكثر منه تحدثاً عن غرام صادق أخذ بمجامع قلبه ، وعن اغراق في اللهو والخمر ولع بهما ؟ أحسبنا في حل من القول بأنه كان مقلداً في غزله وفي خمرياته ، وان هوى نفسه كان الى شيء غير المرأة وغير الخمر ، وان حديثه عن الخمر وعن المرأة إنما كان تقدمة الى الفخر والوصف والسياسة وغيرها من الأغراض التي يريد القول فيها ، وانه في هذه التقدمة كان ينسج على غرار الأقدمين

وما أكثر ما نسج البارودي على غرارهم ! فهو طالما راض القول معارضاً النحول الأولين ، محاولاً ان يبذهم في دبياجته وفي قوة معانيه . وقد وُفّق للتفوق عليهم في أحيان . وقصّر عن عن مداهم في أحيان أخرى . وكثيراً ما كان ينقل في معارضاته من بيئته المصرية الحديثة الى بيئة بدوية جاهلية او بيئة اسلامية بالشام او بالعراق في عهد بني امية او بني العباس ، ثم كان يجعل القول في الخمر والنساء ، والحماسة والفخر ، اغراضاً له في القصيدة الواحدة على طراز من حسن قسمه على معارضتهم ، وكانت ذاكرته القوية تؤاتيه فيما يعارضهم فيه حتى تخاله أحدهم ، ويختلط عليك الأمر فلا تدري ان تميز بين شعره وشعرهم . ومن كانت هذه حاله لم يكن غزله ولم يكن خمره معبرين عن عاطفة ألهبها الحب او حركتها الخمر بمقدار ما حركهم الحرص على التفوق في حلبة النحول الأولين

وأنت تراه يذكر في حب ما تكاد تظنه حكاية حال ، كقصيدته عن غرامه بفتاة حلوان وإنا لنميل الى الظن بأن هذا الغرام لا يزيد على صورة تخيلها الشاعر ، وأقصى ما يمكن ان الظن بها صورة رآها في بعض من فاجأته الخمر عليها من سكره معاني الغرام ، فهل يملكه

حب ولم يقم بنفسه غرام . فالقصيدة التي تقص هذه الحكاية تبدأ بالخمر والحديث عنها ، ثم تروي حديث هذا الغرام لتنتقل منه الى الفخر بقومه الذين يدعون منه بصارخ هوله ، فهو :

رجال أولو بأس شديد ومجدة فقولهم قول وفعلهم فعل
اذا غضبوا ردوا الى الأفق شمسه وسالت بذفراء القذال حلازن

وانت ترى تداول هذه الصور في الكثير من قصائد شبابه : خمر وخمر ولا ريب في انه كان يحس ما يقوله في هذه الأغراض جميعاً . لكن الذي لا ريب كذلك فيه ان الحب لم يلق له يوماً ، وان الخمر لم تذهب يوماً بعقله ، فأما الفخر فكان يعبر عن مثابه الحقيقية وآماله المكظومة

أقام البارودي الشعر في هذه الأغراض وفيها يتصل بها ، مشغلاً بين حلوان والجزيرة ، سعيداً بمقامه الى جانب اسماعيل ، مطمئناً الى حظه بمصر ، الى ان عشرة سنة كاملة . وكما اختزنت ذاكرته الشعر صدر شبابه فقد اختزنت في هذه السنوات المتعاقبة من صور مصر ما زاده حبًّا لها وتعلقاً بها ، وما جعله يتحدث في شعره عنها ويصف بديع مناظرها وصفاً لم يسبقه اليه احد . وصف نهرها الفياض بالخير والنعمة ، ووصف مزارعها الفسيحة تترامى امام النظر الى حدود الأفق ، ووصف آثارها الفرعونية على نحو لعله احدث ما جدد الشعر في عهده . وصف هذا كله مستقلا بوصفه حيناً ، جاعلاً منه بعض موضوعه في قصيدة من القصائد حيناً آخر ، مستمتعاً به في الحالين ، مسبغاً عليه من روعة شعره ثوباً يزيده جمالاً ويزيد المصري له حبًّا وبه تعلقاً

فلما كانت سنة ١٢٩٤ هجرية (١٨٧٨ ميلادية) أعلنت روسيا الحرب على تركيا ، وارسل اسماعيل جيشاً يعاون متبوعه الأعظم . وسافر البارودي مع الجيش ، وشارك في الحرب ، وكرفي عن مواقفه فيها بانعام الخليفة عليه برتبة أمير اللواء وبنيشان الشرف (الميدالية) وبالوسام المجيدي من الدرجة الثالثة . ولم تصرفه ميادين القتال عن قول الشعر ، بل لقد بعث منها إلى مصر من عيون شعره ما جرى بعضه مجرى الأمثال . ومن ذا الذي لا يحفظ قوله :

اذا نحن سرنا صرح الشر باسمه وصاح القنا بالموت واستنفر الجند

وفي هذه الفترة أضاف البارودي الحنين الى الوطن الى اغراض شعره . فهذا الحنين الذي لم يكن بادياً ايام الفراغ قد بدا في حرب البلقان يظهر قويًّا ، كما ترى في ابيات هذه القصيدة التي في مطلعها

هو البينُ حتى لا سلامٌ ولا ردُّ ولا سترةٌ يقضي بها حقَّهُ الوجدُ

وظل تصوير المنظور واضحاً في هذا الطور وسموحه في اشعار البارودي جميعاً ، بل ظل يزداد قوة ووضوحاً ، وتزداد فيه الحركة والحياة بنوع خاص . فالبارودي إذ كان يسجل الصور في شعره لم يكن يسجلها في سمتها وسكينتها على ما يوضع به عشاق الصنعة الصامتة . بل في نشاطها وتحركها كما حي رسم أمامك فرس الحياة في كل ما تقع عليه عينه ما تحرك به بصره